202766 ـ الحجاب قطعة قماش وطهارة قلب وصيانة مجتمع

السؤال

الكلام عن الحجاب كثُر ، لكن أورد لكم عدة شبهات حول الحجاب ، يا ليت تردون عليها كلها لأنها متشابهة . الأول يقول : كلمة (تبرج) كلمة مطاطية ، تختلف من شخص لشخص ، أو مذهب لمذهب ، أو بلد وبلد . فما رأيك في هذا الكلام ؟
وأحدهم يقول : الحجاب حجاب العقل والنفس ، ليس بقطعة قماش ، فماذا عسانا نرد عليه ؟ ، أو إن القوانين هي التي تحمي المرأة ليس الحجاب ؟ هذا بعض ما يدور حول الناس هذه الأيام .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

لا ينبغي للعاقل أن يقف كثيرا عند كل طرح جزئي ، وشبهات في التفاصيل ، ولو فعل ذلك لضاع الزمان ، وانقضت الأيام ، ولم يقض شيئا من المهمات ، إذ الأهم من جواب وساوس المترددين والمتشككين السعي في البناء ، ونشر الحق والفضيلة ، فالوقت لا ينتظر ، وما يورده هؤلاء ليس مبنيا على بحث جاد ، أو حوار صادق هادف للحق أينما كان ؛ إنما هي وساوس من وساوس شياطين الإنس والجن ، منهم من يعلم أنها لا قيمة لها في الوزن العلمي ، ومنهم من لُبِّس عليه أمره ، وأتى الأمر من غير بابه ، واستعجل القول قبل أوانه !!
ومما ينبغي أن يعلم : أن تفريغ الكلمات من مضامينها حيلة معروفة ، وشبهة ساقطة ، حكاها الله عز وجل عن اليهود في القرآن الكريم ، وذلك حين أمرهم سبحانه وتعالى بذبح (بقرة)، هكذا بإطلاق ، فكان جوابهم كما ورد في سؤالك ، أن (البقرة) كلمة مطاطية تحتمل الكثير من أعيان الأبقار فقالوا : (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) البقرة/70.
رغم أن الواقع العملي لكل العقلاء يقضي بأخذ الكلام على ظاهره ، وعلى حدوده التقريبية – وليس الحدية – المعروفة بين الناس ، وإلا ضاعت سائر مصالح الناس في معاشهم ومعادهم ، ودينهم ودنياهم ، ولكنهم لبسوا على أنفسهم ، ونسبوا التقصير للمفاهيم ، وللخطاب الإلهي لهم ، فكان ما كان من قصتهم .
أرأيت لو قال الطبيب للمريض: لا تجهد نفسك . فرفض المريض النصيحة وقال: كلمة (تجهد) مطاطية ، تحتمل أن لا أحمل الأثقال الشديدة ، وتحتمل أن لا أقوم عن فراشي ، وتحتمل غير ذلك من أنواع الإجهاد ، فهل يكون كلامه مقبولا ! بل هل تجد في العقلاء من يعامل الطبيب بهذه الأسئلة المتنطعة ! فلماذا نقبل هذه السفسطة الجدلية في المصطلحات القرآنية أو الشرعية ! ولا نقبلها في حياتنا وأمور معاشنا !

أرأيت لو قال له : خذ الدواء في مواعيده ؛ فقال : الدواء كلمة مطاطية ، وأنا طول عمري والأطباء يصفون لي الدواء ، فبأي دواء آخذ .. ، أو في أي يوم ، أو .. وأدخل على نفسه التلبيس والوساوس ؛ أكان يقوم أمر الناس بشيء من ذلك ؟!

التبرج كلمة قرآنية ، وردت في قول الله عز وجل : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) الأحزاب/33، ولم يستشكلها أحد من الصحابة الكرام فيسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حدها وصورتها ؛ بل لم يقف عندها أعداء الله من المكذبين ، والمنافقين : ليقولوا : عن أي تبرج يتحدث القرآن ؟!

ومع ذلك جاء الشرع الشريف ببيان ما يجب على المرأة تغطيته ، وأنه جميع جسدها – على اختلاف بين العلماء في الوجه والكفين ـ ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) الأحزاب/59 ، وقال سبحانه : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) النور/31.

وروى أبو داود في " السنن " (4104) من طريق سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن خالد بن دريك ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : " أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ، دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِقَاقٌ ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ : (يَا أَسْمَاءُ! إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَمْ تَصْلُحْ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا وَهَذَا) وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفَّيْهِ " .

قَالَ أَبُو دَاوُدَ : هذا مرسل ، خالد بن دريك لم يدرك عائشة رضي الله عنها . ولكن علق عليه البيهقي رحمه الله بقوله : " مع هذا المرسل : قول من مضى من الصحابة رضي الله تعالى عنهم في بيان ما أباح الله من الزينة الظاهرة ، فصار القول بذلك قويا " انتهى من " السنن الكبرى " (2/319)، وحسنه الشيخ الألباني بمجموع طرقه فقال : " الحديث بمجموع الطريقين حسن ما كان منه من كلامه صلى الله عليه وسلم " انتهى من " إرواء الغليل " (6/ 203).

وهكذا فإن الفهم السليم يقتضي أن تحاكِم القائل إلى مصطلح نفسه ، وإلى بيانه وشرحه لأقواله التي يتحدث بها ، ولغة القوم الذين توجه بكلامه لهم ؛ وفي القرآن الكريم خير بيان وتوضيح لما ورد فيه ، فقد قال الله عز وجل : (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) آل عمران/138، وقال سبحانه : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) النحل/44.

ثم إن أصحاب هذه الاعتراضات على الحجاب أول من يكفرون باعتراضاتهم ، ويردون على شبهاتهم بأنفسهم ؛ لأن أحدا منهم لا يقبل أن تعتمد المجتمعات في تنظيمها وتسيير شؤونها على الثقة بما في القلب فحسب ، بل لا بد أن يجتمع إلى ذلك القانون الملزم الذي يستكمل الركن الأول في مسيرة الصلاح ، ولذلك تجد في البلاد المتقدمة مؤسسات تشريعية فاعلة وقوية في وضع الأنظمة وتأسيس القوانين ، وما في بلادنا العربية إلا جزء من تلك المنظومات القانونية المتشعبة التي تمتد إلى جميع تفاصيل الحياة . فلماذا تجهد البشرية نفسها بذلك كله عبر التاريخ ، ولماذا لا تستغني بما في القلوب من التقوى والصلاح !!

والشريعة الإسلامية لها الحق الأول عند من التزمها ، وآمن بها – كسائر التشريعات المعاصرة اليوم في نظر المجادل الذي يؤمن بقانونه وشرعه – في إضفاء صفة الإلزام على بعض الأمور الحياتية لما تراه من مصلحة عامة للمجتمع ، وتترك أمورا أخرى خاضعة إلى سلطة الضمير الإنساني ، والوازع الديني والأخلاقي .

ونحن لا ندعي أن الحجاب هو السبب الوحيد لحماية المرأة ، بل هي المنظومة المتكاملة من الحجاب والأخلاق والقوانين

الشرعية والتربية المحافظة التي تدعو إليها الشريعة الإسلامية ، كلها هي تتضافر فيما بينها على حماية النساء من اعتداء الجاهلين ، بل حماية المجتمع كله .

ومن ينكر ذلك أيضا ، ويدعي أن القوانين فقط هي التي تحمي المرأة وليس الحجاب ، فمثله كمثل من يدَّعي أن القوانين فقط تحمي المجتمع من الجريمة والإرهاب ، وينكر أثر الوعي والعلم والتحصين الفكري والسلوكي في وقاية المجتمعات من تلك المخاطر .

أرأيت لو أن شخصا يعرض نفسه للموت باعتراض الطرق السريعة بجسمه ، فكيف ستحميه القوانين ، وكيف ستصونه أنظمة السير أو العقوبات المشددة بعد أن تعرض بنفسه للموت وكأنه يطلبه ؟!! أليست التوعية والنصيحة هي السبب في إنقاذ هذا النوع من الناس .

ولماذا لم تتمكن القوانين من حماية المرأة في المجتمعات الغربية ، فقد كشفت منظمة (rainn) على موقعها على الانترنت – وهي أكبر منظمة قومية أمريكية ضد الاعتداء الجنسي – أنه في كل دقيقتين في أمريكا ثمة اعتداء جنسي على أحد الأشخاص ، فماذا أغنت عنهم القوانين إذن ؟!!

القوانين ليست عصا سحرية تحل جميع مشاكل المجتمعات ، بل لا بد من توفر أرضية صالحة في المجتمعات ، ولا بد من التزام قوانين أدبية في قلوب الناس وسلوكهم ، كي تثمر القوانين القضائية نتائجها في حفظ الأمن وصيانة البلاد والعباد .

ثم دعنا نوافقك على ذلك يا عبد الله ؛ فهلم نطلب قانونا ملزما لكل امرأة ألا تخرج من بيتها إلا بالحجاب الذي أمرها بها رب العزة ، وأن تعاقب المرأة ووليها إذا خالفت ذلك !!

إن هذه الجدليات إنما تصدر عن شاك ومتردد بالله وبكتابه ، وإلا فلأي شيء نزل القرآن الكريم ، أليس ليحسم لنا هذه القضايا الحياتية فيهدينا إلى أقوم سبيل ، أليس قد قال الله تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) المائدة/15–16، فإياك أن تنسى هذا الأصل العظيم تحت وطأة كثرة الملبسين .

والله أعلم .